مركز الحبتور للأبحاث

عوالم مُتخيّلة

www.habtoorresearch.com

الفصل الجيني

حين يصبح التفوّق الاصطناعي جدارًا يفصل البشر

بقلم حبيبة ضياء الدين

«ماذا أفعل الآن؟» تمتمت فريدة وهي تحمل طفلها على كتفيها.

بحلول عام 2050، أصبح العالم نموذجًا مثاليًا للتحسين الوراثي، حيث حلّت الجينات المصممة محلّ التنوع الطبيعي، وكادت الأمراض تُمحى من الوجود، لكن المدن انقسمت إلى شطرين.

في أحد الشطرين، كانت هناك منطقة براقة يسكنها المُحررون جينيًا، أولئك الذين جرى تفصيل جيناتهم بعناية لتعظيم الذكاء، وزيادة القدرة البدنية، وتعزيز مقاومة الأمراض. وفي الشطر الآخر، ثمة متاهة من البنى التحتية المتداعية، يقطنها غير المُحررين، الذين إما رفضوا التدخل الوراثي أو عجزوا عن تحمّل تكلفته.

كانت تقنية التعديل الجيني المعروفة باسم "كريسبر" في السابق مجرد تقنية ناشئة، أما اليوم فقد باتت هي السائدة والمهيمنة. تنقسم المدن إلى جزأين، يسكنهما شعبان مختلفان، ويُحظر الاندماج بينهما. لم يعد الفصل في هذا العصر قائمًا على العِرق أو الطبقة الاجتماعية؛ بل بات قائمًا على القدرات الجينية. فأصحاب الجينات المعدّلة هم المحظوظون الذين يعيشون في الشطر المترف من المدينة، في حين تُرك أصحاب الجينات الطبيعية/غير المعدّلة في دائرة النسيان.

إنه تطور طبيعي لتسلسل طويل بدأ بفكرة أفلاطون عن "الآباء ذوي الصفات الممتازة"، ثم تحوّل إلى علم تحسين النسل، ومنها إلى تفوّق العِرق الأبيض، ثم إلى عالم "من يملكون" و"من لا يملكون"، واليوم... إلى "المعدّلين" و"غير المعدّلين".

كانت فريدة تعيش في الجزء غير المُحرر جينيًا من المدينة.

كان ابنها قد أُصيب بمرض مفاجئ بعد تناوله طعامًا معدّلاً جينيًا تم تهريبه عبر السوق السوداء. لم يتحمّل جهازه المناعي، غير المهيّأ للتعامل مع المواد المُصنّعة، فانهار تمامًا. همس أحدهم: «لا نملك الأدوات اللازمة». ثم أضاف: «العلاج موجود في الجانب الآخر، لكن... الوصول إليه مستحيل».

وفجأة، قفزت فكرة إلى عقل فريدة، قطعت سيل أفكارها المتشابكة: «لديّ وسيلة... أعرف مهرّبة". تذكّرت فريدة تلك المرأة التي التقتها منذ سنوات في إحدى التظاهرات، امرأة قوية البنية، ذات قلب وضمير قاسي.

قالت المهرّبة، بينما كانت عيناها تفحصان وجه فريدة في ضوء خافت: «سيُكلّفك هذا كثيرًا»، ثم أضافت: «لكنهم لن يشكّوا بكِ. مظهركِ نظيف إلى حد ما».

كانت نقطة العبور صامتةً، وخاليةً من البشر. دخلتا عبر أنفاق سرّية تمرّ تحت سور المدينة الدائري – حدود غير مرئية، تحرسها ماسحات حيوية وطائرات دون طيّار لا تعرف النوم.

وجوه الناس فيها متشابهة، كأنّهم وُلدوا من رحمٍ واحد. والسبب في ذلك، بطبيعة الحال، التعديلات الجينية.

داخل المدينة، كان الهواء مختلفًا... معقّمًا إلى حدّ مخيف.

مدينةٌ ضخمة، ومترفة، ومكتملة، وجميلة. ومع ذلك، تبدو ضئيلة، وفقيرة، وفارغة، وقبيحة. إنّها مدينةٌ مشوّهة؛ وجوه الناس فيها متشابهة، كأنّهم وُلدوا من رحمٍ واحد. والسبب في ذلك، بطبيعة الحال، التعديلات الجينية. التباين الحادّ بين جانبي المدينة أعاد إلى ذاكرة فريدة ما كانت تقرأه في كتب التاريخ عن التمييز الذي كان يتعرّض له الأمريكيون من أصول إفريقية واللاتينيون. ومع ذلك، فإنّ ما تشهده الآن أعمق بكثير.

نُقل ابنها إلى عيادة خاصة، حيث تردّدت موظفة الاستقبال للحظةٍ وجيزة بعد إجراء تحليل للدم باستخدام تكنولوجيا القياسات الحيوية المتقدمة. ظهرت على الشاشة عبارة باللون الأحمر: «تم رصد جينوم غير مصرح به»، لكن فريدة توسّلت: «إنه مجرد طفل». رضخ أحد الفنيين أخيرًا قائلًا: «سوف نساعده، لكن عليكِ المغادرة بعد ذلك».

وبينما انخرط الأطباء في أداء مهمتهم، بدأت فريدة تتجوّل في المدينة. رأت أطفالًا بوجوه متناظرة بشكل مذهل، ومحالّ ممتلئة بأطعمة مُصمّمة وراثيًا، ومعالجين نفسيين يعملون بالذكاء الاصطناعي، وحدائق زجاجية لا تذبل فيها الأعشاب أبدًا.

ومع ذلك، كان كل شيء يبدو... باهتاً، بلا روح.

في أحد المقاهي، التقطت أذناها محادثة بين اثنين من المواطنين المُعدّلين جينيًا:

«هل سمعت عن المتحوّر؟»

«يقولون إنه بدأ في الشطر الآخر. طبعًا، من غيرهم؟»

«علينا أن نعزلهم كليًا. لا مجال لمزيد من التسريبات.»

غادرت فريدة قبل أن يتمكنوا من رؤية وجهها. ما إن خرجت حتى لفحها هواء بارد قاسٍ، كأن المدينة تلفظ كل دفءٍ لا ينتمي إليها. كانت مدينةً تُشبه جِنِّيَّة البحر، تستهويك ببريقها، ثم تبتلعك إن لم تكن على مقاسها تمامًا ولا تنسجم مع نمطها.

"أهذا هو التقدّم حقًا؟ أم أنّه مجرد شكل جديد من أشكال التمييز؟"

فكّرت في ابنها... في جيناته الرقيقة، النقية، التي لم يمسسها تعديل– كيف كانت تلك الجينات، التي لم تمسّها يد الهندسة الوراثية، درعه الوحيد في وجه هذا الاضطراب الجيني الذي اجتاح العالم. ومع ذلك، وفي خضم كل ما تزخر به هذه المدينة من ثراء وتقنية...كان مرضه يُصنّف ببساطة على أنه: "مشكلة تخص الشطر الآخر".

واصلت السير عبر الشوارع العريضة للمدينة، وعيناها تفتشان وسط بحرٍ من الوجوه المتطابقة، ذلك التماثل المقلق الذي جعلها، وللمرّة الأولى، تشعر بأنها الغريبة الوحيدة. هذه المدينة لم تكن أفضل. كانت فقط أنظف، وأكثر لمعانًا، وأسرع، لكنها بدت فارغة... كآلةٍ تعمل بلا روح.

وصلت فريدة إلى بوابة العيادة التي عولج فيها ابنها، حصنٌ عالي التقنية، تحرسه جدران لامعة مصقولة بدقة. ولأول مرة منذ عبورها إلى الجهة الأخرى، انتابها خاطرٌ تملّكها بوضوح حادّ: "أهذا هو التقدّم حقًا؟ أم أنّه مجرد شكل جديد من أشكال التمييز؟ مستقبل لا ينال فيه حقّ البقاء والرفاه إلا من يمتلك الجينات "الصحيحة"؟

حين عادا إلى مدينتهما، تحسّنت حالة الطفل بشكل ملحوظ، لكن فريدة لم تشعر بالارتياح، بل انتابها شعورٌ مقلق بما قد فُقِد. الانقسام لم يكن جينيًا فقط: بل كان هوّةً عميقة تفصل بين عالمين مختلفين تمامًا: عالمٌ يزدهر بالكمال المصطنع، وآخر يصارع من أجل الحفاظ على إنسانيته.

ومضت السنوات، وأُعيدت صياغة القوانين، وبدأ الجدل حول إطار أخلاقي جديد لتقنية "كريسبر".

ظلّ بريق وعد التعديل الجيني قائمًا – مستقبلٌ بلا أمراض، تُستنهض فيه أقصى قدرات الإنسان. لكن فريدة لم تستطع التخلص من قناعتها بأن هذه التقنية قد جاءت قبل أوانها. فالابتكار سبق الأنظمة التي كان ينبغي أن تكون جاهزة للتعامل معه بمسؤولية.

ومع مرور الوقت، تعمّق الانقسام بين العالمين. ومعه، اتّسعت التصدّعات في جوهر الإنسانية ذاتها.

لم تتوقف فريدة يومًا عن النضال من أجل التغيير – من أجل عالمٍ لا يُقصى فيه أحد، سواء بسبب ميلاده أو خياره.

لكنها، في كل يوم، كانت تتساءل: هل نحن مستعدّون فعلاً للتعامل مع هذا القدر الهائل من القوة التي صنعناها؟

ومع كل يومٍ يمضي، كانت تزداد قناعة بأنّنا، ربّما...لم نكن مستعدّين بعد.

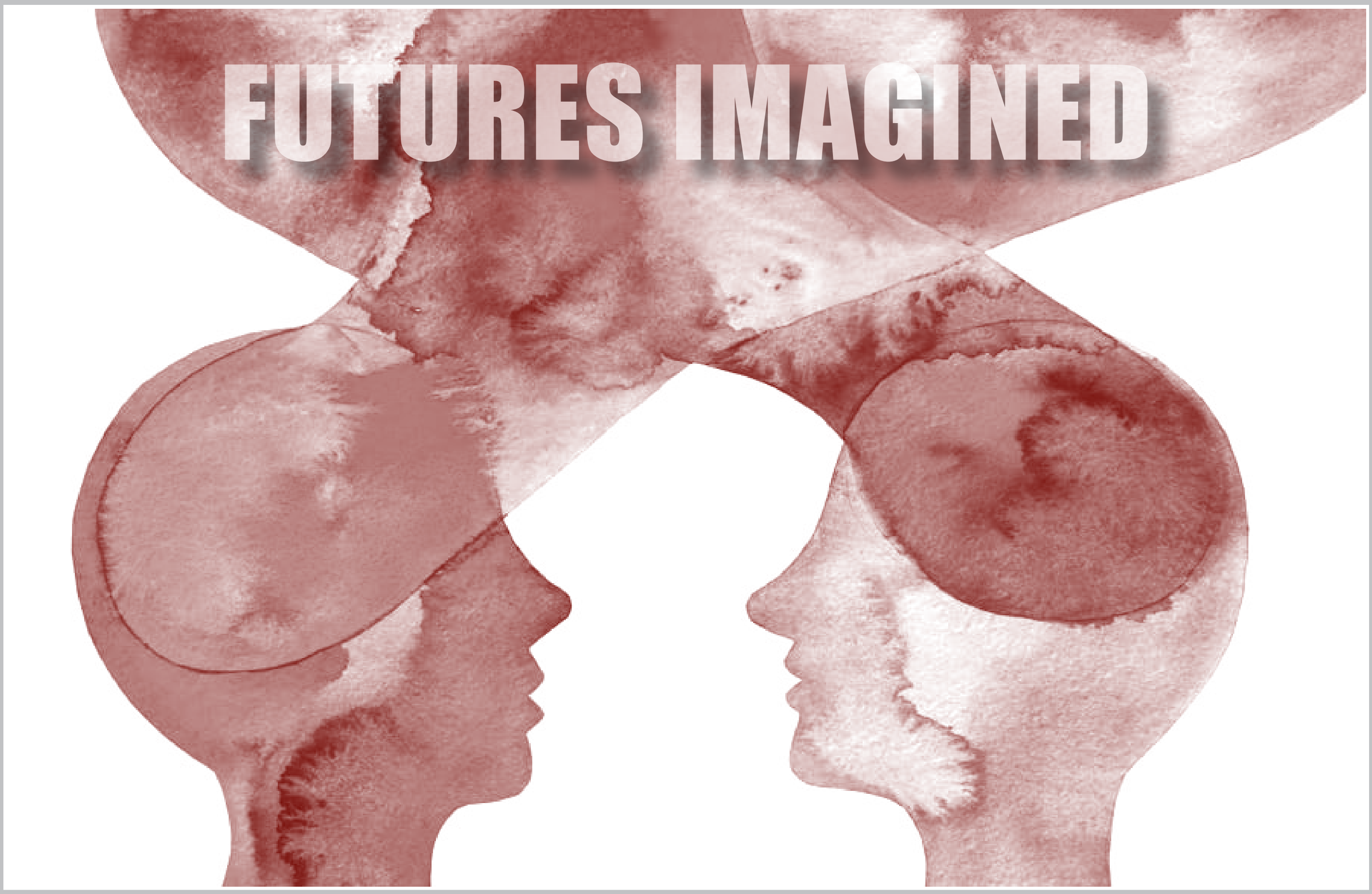

مركز
الحبتور
للأبحاث

www.habtoorresearch.com